هل نحن شعب قذر ؟

حملة فى سبيل النظافة ...

يذكر التاريخ أن الشعب المصرى القديم كان من أنظف شعوب العالم ، تشهد بذلك وصاياه وصوره ومخلفاته . وذلك طبيعى فى شعب فتح التاريخ عينه على حضارته الذاهبة فى القدم مذهب التاريخ ، والنظافة طابع الحضارة الأول فى جميع الشعوب .

فمن العجيب إذن أن تنقلب هذه الحالة فتصبح القذارة هى الطابع الشعبى الغالب فى هذه الأيام ، ذلك الطابع الذى تراه العين وتتأذى به فى كل ماتقع عليه .

تراه باديا فى الملابس القذرة التى يلبسها الفلاحون والعمال ومن فى طبقتهم ، وهى مليئة بالبقع والوساخة والأتربة ، ودعك من اختلاف الأزياء فى هذه الأوساط ذلك الاختلاف الذى يدل على سوء الذوق وضعف ملكة النظام. فنحن لا نريد مؤقتا إلا النظافة لهذه الأزياء المختلفة جد الاختلاف .

وتراه واضحا فى البيوت ، ففضلات الآدميين والحيوانات والطيور مخلوطة بالتراب وبقايا الطعام والماء القذر ... جميعها تؤلف "معجنة" يتوالد فيها الذباب والبعوض والصراصير وسواها من الحشرات ، فضلا على الرائحة الكريهة والمنظر المؤذى ، الذى ألفته أعين الفلاحين فى القرى وسكان الأحياء الوطنية فى المدن حتى أصبحت لاتنفر منه ولا تأباه .

وتراه فى الطرقات المهملة المكدسة بفضلات البيوت ، وبأكوام السماد العضوى ، وأنقاض البيوت المهدومة ، حتى لتبلغ الحال أن يكون هذا مظهر بعض الشوارع الرئيسية فى العاصمة ذاتها حين تهدم البيوت أو تشق الشوارع لأنابيب الماء والمجارى والنور ، أو لغيرها من الأغراض ، ويقع فى بعض الأحيان أن يضطر المارة الى تسلق هذه التلال والتدحرج من فوقها ثانية فى الظلام . كما يقع أن ينزل المطر الخفيف فيحيل هذه الأكداس فى قلب القاهرة الى مزالق وبرك ومستنقعات وأوحال لعدة أيام .

وتراه فى المطاعم الوطنية جاثما على موائدها وصحافها وأدوات الأكل والمناشف.وسواها وإنك لتجد الذباب يطن ، وفضلات الطبخ متجمعة بجوار هذه المطاعم بصورة مؤذية ،

ونظرة واحدة الى الطريقة التى تنظف بها الصحاف والأدوات كفيلة بأن تتقزز لها النفس ، ومع هذا تقبل طبقات كبيرة من الشعب على تناول الطعام هناك وهـذه المناظر أمامهم بدون حذر ولا تقزز .

وتراه فى دكاكين البدالين والقصابين وبائعى الخضر والفاكهة على الرغم من جميع الإجراءات الصحية المشترطة فى افتتاح هذه الدكاكين مما يشوه منظرها ، ويولد فى النفس الاشمئزاز من منظرها بله تناول ما فيها من الضروريات .

وطبيعى أن ترى طابع القذارة بعـد ذلك فى الباعة الجوالين وعربانهم وفى باعة اللبن وأدواتهم . لا فى المواد التى يبيعونها فقط ولكن فى ملابسهم وأجسادهم ووجوههم وأصابعهم التى يلمسون بها ما يبيعون أو يغطسونها فيما يبيعون إذا كان سائلا كاللبن والشراب ، بلا حذر ولا مبالاة .

* * *

بين هـذه الحالة وبين الحالة الاقتصادية العامة لهذه الطبقات صلة كبيرة ولا شك ، فالعجز عن النظافة سبب أصيل من أسباب القذارة ، وكل محاولة لرفع مستوى هؤلاء الناس من الوجهة المـادية هى محاولة فى سبيل النظافة من غير شك . وكثيرون أولئك الذين يقعدهم عن النظافة عدم القدرة على شراء الصابون بل على شراء المـاء فى كثير من الأحيان ، وكثيرون ليس لملابسهم التى على أجسادهم بدل فهم لا يخلعونها حتى تبلى ، ولا يجدون سواها بعد أن تبلى ، فيرقعونها ويخيطونها خياطة رديئة تمسك مزقها مجرد إمساك ، ولا حيلة لهم فى هذا المظهر الزرى الذى تتأذى به العين .

ولكننا مع هذا نظلم الحالة الاقتصادية إذا نحن حملناها تبعة هذه القذارة العامة . فكثيرون جدا من هؤلاء القذرين يملكون النظافة . والنظافة ليست غالية الثمن حين تراد ، بل يملكون الأناقة لا مجرد النظافة وهم مع ذلك قذرون .

خذ مثلا لذلك تلك المطاعم الشعبية الكبيرة التى يربح أصحابها مئات الجنيهات كل شهر فى بعض الأحيان ، وهى مع هذا قذرة المقاعد والموائد والأدوات والمناشف ، وقذرة الحوائط والسقف والأرض وقذرة العمال والخـدم . ما علة هـذه القذارة فى تلك المطاعم وأصحابها يملكون نظافتها من أيسر سبيل ؟

ثم دكاكين البدالة والخضر والفاكهة واللحم واللبن وسواها ، وأصحابها غير فقراء ، والنظافة لا تكلفهم الكثير ، والنظام لا يكلفهم شيئا أصلا ، وهم مع هذا قذرون وبضاعتهم قذرة فى كل مكان .

ثم هؤلاء الباعة الجوالون وهؤلاء العمال الصغار الذين يلبسون جلاليب متعددة الأشكال والألوان وثمن هذه الجلابية بلا شك يعادل أو يزيد على ثمن الكساء الأزرق أو البنى الجميل الذى يلبسه بعض العمال . وهذا الكساء أمتن وأكثر تحملا للعمل وللغسل ، وهم مع ذلك لا يلبسونه ، ولو لبسوه لكان خطوة كبيرة فى سبيل توحيد الأزياء .

ثم انظر إلى أطفالنا فى القرية وفى قلب المدينة وهم يخوضون فى أوحال المطر أو الأوحال الناشئة من كسر أنبوبة مياه فى الطريق العام . انظر اليهم تجدهم يلتذون هذا الخوض ويمرحون فى هذه القذارة وهناك جانب الطريق النظيف وهم يتنكبون عنها هربا من النظافة فالقذارة إذن فى روحهم وفى عاداتهم ، وليست اضطرارا لا محيص لهم عنه !

ثم انظر هؤلاء الذين يلقون بالقمامات فى الطرقات العامة وعلى بعد أمتار منهم صندوق معد لهذه القمامة . أو إلى هؤلاء الذين يلقون الأوراق المهملة فى الطريق وأمامهم سلة المهملات معلقة فى العمود . أو إلى الذين يلقون بأعقاب السجاير فى أرض المقهى أو على بساط حجرة الجلوس أو يطفئونها فى أطباق القهوة وأمامهم منفضة السجاير ، أو إلى أولئك الذين يبصقون على الأرض وفى جيوبهم المناديل ، كأنما وضعت هناك للزينة !

هؤلاء جميعا حجة على أن القذارة عادة وليست ناشئة عن اضطرار أو عجز عن النظافة .

ولا أريد أن أتحدث عن الريف القذر حتى فى بيوت الوجهاء هناك ، القادرين على النظافة لو أرادوها ؛ ولو نظفوا بيوتهم لكانوا فى ذلك قدوة لسواهم من صغار الفلاحين ، ولكن القرى بأغنيائها وفقرائها تنغمس فى هذه القذارة بلا اهتمام .

وكثيرا ما نشاهد عاملا مصريا وعاملا أجنبيا يتقاضيان أجرا واحدا ، أو بائعا مصريا و بائعا أجنبيا يكسبان مكسبا متقاربا ، أو دكانا مصرية ودكانا أجنبية متساويتين فى رأس المال ؛ ثم نرى الفرق بعيدا بين مظهر كل منهما ومظهر الأخرى فى النظافة والإناقة والترتيب .

المسألة إذن ليست مسألة الفقر وحده ، ولا مسألة العجز وحده . إنما هى أعمق من ذلك ، هى مسألة الحالة النفسية ، ومسألة التربية المنزلية ، ومسألة الشعور الإنسانى بالحياة .

وهنا نلمس نقطة خطيرة أو نقطا خطيرة .

فأنا أعتقد أن طول عهود الخمول الشعبية فى مصر من جراء الضغط السياسى والاقتصادى مئات الأجيال ، قد أثرت فى الروح المصرية العريقة ، وقضت أو دفنت روح الحضارة المصرية القديمة ، فأصيبت النفسية الشعبية بالكثير من الخمول والزهدو "القرف" من الحياة . ومن شأن هـذه الحـالة أن تميت الميل الى النظافة ، فالنظافة حاجة روحية قبل أن تكون حاجة جسدية ، والفرد الذى يشعر بقيمته يميل الى النظافة وحسن المظهر ، وكذلك الشعب الذى يشعر بقيمته ومركزه فى الحياة .

ولقد كان المصرى يحس بعظمة مكانته فى العالم وسمو عنصره على جميع العناصر فى أيام مصر القديمة العريقة ، فكان لهذا نظيفا خفيفا ، وكان رياضيا كذلك معنيا بجسمه وهندامه معا ؛ فلما توالت عليه الكوارث وفقد استقلاله ، وفقد أهميته فى الكون آوى إلى الخمول والقذارة والركود .

القذارة اذن مظهر طارئ على المصريين ، نشأ عن الخمود الروحى ، والخمول الأدبى ، فاذا عرفنا ذلك عرفنا كيف نضع يدنا على النقطة الحساسة فى العلاج ، وهى استعادة الشعور بالعزة القومية والعظمة العنصرية ، والأمجاد الوطنية ، وعرفنا أن الوتر الحساس الذى يجب أن نوقع عليه هو وتر الاحساس القومى والوطنى فى نفوس المصريين .

النظافة ممكنة — مع الفقر بل مع العوز — اذا أيقظنا فى النفس المصرية حاجتها الى النظافة ، وستحس بهذه الحاجة يوم تحس أنها فى حاجة الى حسن المظهر الداعى الى الاحترام ، وستحس بهذا الاحساس الأخير يوم تشعر أنها شىء له قيمة فى الحياة وليست كمية مهملة فى نظر الدنيا ولا فى نظر الحكام !

وتلك هى نقطة البدء فى العلاج .

* * *

ولكن هذا أمر يطول ، ولا بد معه من وسائل أخرى مباشرة وسريعة ، وهذه الوسائل هى التى نقترحها فيما يلى باختصار :

أولا — العناية بتربية الذوق وبث روح النظافة فى الأطفال الصغار ، وتربية الذوق كلمة صغيرة ولكن تحقيقها يحتاج الى مجهود ضخم تشترك فيه قوى الدولة وقوى الأمة جميعا !

فتربية الذوق تقتضى أن تجعل جميع المناظر التى تقع عليها عيون الأطفال فى البيت والطريق والمدرسة ، وهذا يردنا الى طلب المعجزة التى تبث النظافة والجمال فى جميع هذه الأوساط .

اذن نتواضع ونطلب فقط أن يكون منظر المدرسة التي يقضي فيها التلميذ ثماني ساعات في اليوم تقريبا منظرا يربي الذوق في النفوس ، وهذا وحده يعد نواة طيبة لتربية الذوق ، فاذا أضفنا اليه مراعاة الجمال في كتب التلاميذ والمصورات المعلقة بالجدران ، وفي حديقة المدرسة ونظام فنائها ، كان ذلك خطوة أخرى كبيرة .

و إذا أضفنا الى ذلك أن تعمل الدولة على الإكثار من المتنزهات والحدائق العامة ولا سيما في الأحياء المكتظة . بحيث يجد أطفال هـذه الأحياء متنفسا غير البيوت القذرة والطرقات الموحلة ، فإن ذلك يقربنا جدا من تربية الذوق العام .

و إذا أضفنا الى هذا وذلك أن تعمل الدولة على مراعاة روح النظام والجمال في المباني بطريق القانون والإرشاد الفني ، بحيث تجمل أو تنعدم تلك المناظر المشوهة للأبنيـة حتى في الشوارع الجديدة ، كان ذلك ترفا تراه الأمم المتحضرة من الضروريات لتربية الذوق العام !

و بجانب هذه المظاهر العامة ينبغي أن تتابع المدارس عنايتها بالنظافة الشخصية للتلاميذ ، وهي تبـذل الآن عناية مشكورة بالفعل ، ولكن يجب أن توضع جوائز للنظافة تشـجيعا للتلاميذ ، وتمنح هذه الجوائز على الأخص لأبناء الفقراء من التلاميذ الذين يبذلون في النظافة جهدا حقيقيا لا يبذله أبناء الأغنياء . فهؤلاء يجدون النظافة ميسرة ولا ضرورة لتشجيعهم عليها ، فهم بحكم وسطهم نظيفون غالبا ؛ إنما أولئك هم الذين يحتاجون الى التشجيع والتعويد .

ثانيا — بتيسير وسائل النظافة للعاجزين عنها من الوجهة المـادية ، ووزارة الصحة و وزارة الشؤون الاجتماعيـة تعملان على ذلك بإنشاء المغاسل والحمامات وتوزيع الصابون والملابس ، ولكن هذا العمل ينبغي أن يقوم على دعائم شعبية كبيرة ، فميزانية الدولة لا تسمح بتلبيـة جميع الحاجات ، والمبرات التي يهم بها الأهالي يجب أن ينصرف قسم كبير منها إلى هذه الغاية ، فلدينا مؤسسات خيرية كثيرة عندنا منها فوق الكفاية ، بينما المؤسسات العصرية الحديثة قليلة أو نادرة . فمن الواجب أن نراعي روح العصر فيما ننشئ من مؤسسات ، وتيسير النظافة من أشد ما يحتاج اليه شعب فقير .

ثالثا — بالتشريع والمراقبـة . وهـذا ما توجه إليه وزارة الصحة جهودا مشكورة ، ولا سيما صحة العاصمة ، ولكن يجب أن يكثر عدد المفتشين والمعاونين الصحيين ، وأن تشتد وسائل المراقبة ، وأن تزيد العقوبات المفروضة على المخالفات الصحية . وقد أثمرت جهود الصحة في مظاهر بعض الدكاكين والعربات الجوالة ، ولكن ملابس الخدم والعمال بهـذه المحال وملابس الباعة الجوالين كذلك وأجسامهم لم تشملها النظافة .

ولا يغيب عنا أن الحالة المـادية لبعضهم قد تجعـل النظافة عبئا ثقيلا على مواردهم ، ولكن تيسير وسائل النظافة المجانية قد يحل هذه المشكلة ، ويجعل النظافة ميسورة للجميع .

رابعا — بالعمل على الإكثار من المراحيض العامة فى البيوت والقرى فى الريف، فكثير من المياه القذرة يصب فى الشوارع لأنه لا مصرف له إلا الطريق العام ، وهذا يسبب كثيرا من الأمراض فوق المنظر القذر .

خامسا — بالإرشاد والتلقين . وفى هذا السبيل يجب أن نجرد حملة مشتركة من رجال الدين ورجال التعليم ورجال الصحة والمرشدين الاجتماعيين، ومن الإذاعة والتمثيل. ومن جميع الوسائل التى نملكها .

فالواقع أن الكثيرين ينقصهم الإرشاد والتوجيه، أكثر مما تنقصهم المقدرة على النظافة، وهؤلاء نستطيع أن نكسبهم إذا دخلنا إلى نفوسهم من باب الدين تارة ، ومن باب الصحة تارة ، ومن باب الكرامة تارة ، فيصبحون بدورهم جنودا فى معركة النظافة .

وهنا ينبغى أن ننبه إلى العامل النفسى الذى تحدثنا عنه آنفا ، فعامل الكرامة من أهم العوامل فى النظافة ، وقلما رأيت فردا واحدا يشعر بكرامته فى الريف أو فى المدينة ثم يبقى على قذارته ، فبين الشعور بالكرامة وبين النظافة صلة وثيقة فى جميع الأزمان والأحوال .

وقد أسلفت الحديث عن أثر المهانة القومية والانحلال الوطنى فى روح النظافة التى عرف بها المصريون القدماء ، فلنعتمد على إثارة روح الكرامة القومية والشخصية إذا أردنا إيقاظ هذا الروح القديم العريق .

ويجب أن نذكر أن مشكلة البلهارسيا والانكلستوما والأمراض الجلدية المختلفة والملاريا والتيفود والتيفوس هى مشكلة النظافة، فالتبول والتبرز فى المجارى العامة هو علة الأمراض المتوطنة، والملاريا هى مرض البعوض والتيفود هو مرض الخضر القذرة، والتيفوس هو مرض القمل، والأمراض الجلدية هى أمراض الوساخة .

وأخيرا يجب أن نتجه إلى الأم المصرية نستنجد بها لتربية الطفل المصرى على روح النظافة والنظام، وهى لن تسمع صيحتنا إلا إذا كانت متعلمة، ولكننا مع الأسف الشديد نرى البنت المصرية تتعلم لتهجر البيت مطالبة بعضوية البرلمان وبالوظائف العامة، أو تركن إلى البيت ولكنها تتمرد على شؤونه الخاصة وعلى تربية الجيل الجديد .

إننا نريد مجندات فى معركة النظافة ومعركة التربية الجديدة ، مجندات ينشئن الجيل ، ويقدن الأمهات اللاتى لم يسعفهن الحظ بقسط من التعليم ، ويوجهنهن إلى النصر فى هذه المعركة العظيمة .

لقد كنا شعبا نظيفا فى أول التاريخ ، فلنبق شعبا نظيفا ، والأمم من حولنا قد أخذت عنا أول حضارة فى التاريخ .